# آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السابعة : العددان الخامس والعشرون والسادس والعشرون - ربيع الأول ١٤٢٠ هـ - تموز (يوليو) ١٩٩٩م

■ كتاب الحلم والعلم لآدم بن أبي إياس العسقلاني - ٢٢٠هـ

* KITAB AL HILM WAL 'ILM, by Adam bin Abi Iyas Al 'Askalani - 220 A.H. - copy from the 7th century after Hijra.

# ابن العربي رائدًا للتربية المقارنة

الأستاذ / الزبير مهداد
مكتبة الزمالك المغرب

***خلف الرحالة المسلمون كتبًا ورسائل سجّلوا فيها تواريخ رحلاتهم ومشاهداتهم ولقاءاتهم الشيوخ، وما دار بينهم من نقاشٍ وحوار، وما سمعوه وقرؤوه ورووه من الحديث والأخبار. وكذا الإجازات التي حصلوا عليها، أو منحوها لغيرهم.***

***كما تتضمن تلك الكتب وصفًا دقيقًا لمجالس العلم والمدارس، وأنظمة التعليم، وظروف حياة الطلبة والمدرسين. فضلاً عما تزخر به من معلوماتٍ دقيقة وافرة عن المجتمعات المزارة، ومظاهر حياتها الثقافية والاجتماعية، مثل ما نجده في كتاب «رحلة ابن جبير» وفي «تحفة النظار» الذي صنفه ابن بطوطة؛ إذ بفضل ما ورد في الكتابين من وصفٍ لمجالس التدريس، تمّ تطوير نظام التعليم بجامع القرويين بمدينة فاس المغربية***[1].

إنّ الرحلات تشكّل أكثر المدارس تثقيفًا للإنسان، فالسياحة التي تدفع إلى الاختلاط بالناس ومعاشرتهم، واجتهاد الرحالة في تأمل أخلاقهم وطباعهم ودراستها، تضع أمام الفرد مجالاً مهمًّا للمقارنة، كما تساعده على تقييم نظم بلده وتقاليدها[2]، لهذا تعدّ هذه الكتب مصادر مهمة لتاريخ الحركة الثقافية والعلمية، ومن خلالها يمكن رصد تطور أنظمة التعليم والتربية في المجتمعات الإسلامية.

وفضلاً عن ذلك، كانت هذه الرحلات فرصة لمقابلة أنظمة التعليم والتربية بالمشرق الإسلامي مع نظيرتها بالمغرب، وهو ما فعله الفقيه الرحالة أبو بكر ابن العربي المعافري. وقد اعتمد ابن خلدون على كتاباته عند الحديث عن أنظمة التعليم العربية، وعند إجرائه المقابلة بينها. قال المستعرب الروسي كراتشقوفسكي: «إن ابن العربي قدّم من خلال خلاصة رحلته مادةً ضخمة في مجال الحضارة الثقافية والاجتماعية لذلك العصر»[3].

ومن هذا الباب يمكننا الحديث عن ابن العربي بصفته رائدًا من روّاد التربية المقارنة في التاريخ العربي الإسلامي؛ لأن آثاره التربوية، وأهداف مقارناته، تتفق مع مفهوم التربية المقارنة وأهدافها.

## رحلة ابن العربي

ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين كبيرين هما:

١ – المشرق : يشمل بلاد العرب وفارس وما وراءهما، والعراق والشام ومصر.

٢ – المغرب : يشمل شمال إفريقيا والأندلس[٤].

وقد شهد العالم الإسلامي منذ الفتح تنقّل كثيرٍ من الناس بين مشارقه ومغاربه، بعضهم للحج، وبعضهم للتجارة، كما كان البحث عن مصادر العلم، وسماع الحديث، وتحصيل الرواية، وربط السند سببًا في تنقّل كثيرٍ من المسلمين.

وكان أبو بكر بن العربي واحدًا من أولئك الرحالة الذين أتيحت لهم فرصة الهجرة إلى المشرق الإسلامي للحج والاستزادة من العلم.

فقد ولد ابن العربي يوم ٢٢ شعبان عام ٤٦٨ هجرية بمدينة إشبيلية حاضرة الإمارة العبادية. وكان والده من علماء إشبيلية وأعيانها، تولى مناصب علمية في ديوان المعتمد بن عباد.

تلقى ابن العربي تعليمًا جيدًا وخاصًّا على أيدي ثلاثةٍ من المعلمين، واحد لضبط القرآن بالأحرف السبعة، والثاني لعلم العربية، والثالث للحساب. فحذق القرآن وهو ابن تسع سنين، وتلقى جملةً من الحديث على أشهر شيوخ إشبيلية، كما أتقن العربية، ودرس كتبًا كثيرة في اللغة والشعر العربيين والحساب والمنطق.

تحدث في مقدمة كتابه «قانون التأويل» عن أسباب رحلته ومكابداته فيها، فذكر أنه بعد خضوع إشبيلية للمرابطين[٥] صحبه والده في مستهل ربيع الأول من عام ٤٨٥ في رحلةٍ إلى الحجاز، فعبر من الأندلس والمغرب الأوسط وتونس، ثم ليبيا، حيث تحطمت سفينة رحلته، ثم نزل بالإسكندرية في شوال من السنة نفسها، وفيها لقي أبا القاسم مهدي الوراق، ثم توجه إلى القدس حيث مكث ثلاث سنوات، وكانت القدس آنذاك مركزًا ثقافيًّا وعلميًّا مهمًّا، فأخذ عن الطرطوشي، وعطاء المقدسي، الذي أعجب بذكاء ابن العربي ونبوغه الذي أبداه في مناظرته، فهنأه لذلك. ظلّ ابن العربي على كدّه واجتهاده حتى تحصل له أغراض العلوم الثلاثة: علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف.

غادر ابن العربي القدس إلى عسقلان عام ٤٨٨، ثم إلى مكة عام ٤٨٩، ثم إلى دمشق فبغداد فالحجاز، وعاد إلى بغداد مرةً أخرى، حيث لزم أبا بكر أحمد الثاني رئيس الشافعية، والغزالي الذي كان مقيمًا برباط أبي سعد.

هكذا طاف ابن العربي بالمراكز الثقافية الشرقية، وامتصّ رحيق علومها سماعًا، وتقييدًا، ومشافهةً، ومناظرةً، وإجازة. وعاد إلى بلاده بعلمٍ لم يسبقه إليه أحد من الرحالة غير الباجي.

اطلع فقيهنا خلال هذه الرحلة على أنظمة التعليم المختلفة عن مثيلاتها في المغرب، كما وقف عن كثب خلال الرحلة على نتاج المؤسسات التعليمية المتمثل في كفاءات العلماء والأئمة وقدراتهم، ومناهجهم في العقل والنقل، فتبين له أن الاختلاف قائمٌ بين المشارقة والمغاربة في المناهج العقلية والاتجاهات الفكرية والعلمية، وهذه الأمور ليست متوارثة، بل مكتسبة في المدارسة خاصةً ومؤسسات التعليم الأخرى. وتؤدي مناهج التعليم ومجالس المناظرة والبحث دورها في إبراز هذا الاختلاف وتنميته.

وخلال هذه الرحلة أيضًا لازم الإمام الغزالي، وتتلمذ عليه، وتأثر بآرائه في التربية.

عاد أبو بكر بن العربي إلى بلاد المغرب بعلمٍ غزير وآراءٍ جديدة في التعليم، أثنى ابن خلدون عليها، وأعجب بها، ونقل كثيرًا منها في مقدمته. حقق كتاب رحلته ونشره الأستاذ سعيد أعراب.

إنّ آراء ابن العربي في التربية والتعليم نجدها مبثوثة في كتبه، التي من أهمها:

– (آداب المعلمين): الذي ذكره الشوشاوي في الباب السادس من كتابه (الفوائد الجميلة على الآيات

الجليلة). ولم نقف على هذا الكتاب، كما أننا لم نجد له أثرًا في قوائم الكتب والفهارس.

- كتاب (مراقي الزلف): يعدّ في حكم المفقود[٦]، نقل منه ابن عرضون في كتابه (مقنع المحتاج).
- كتاب (العواصم من القواصم).
- كتاب (قانون التأويل): حققه محمد السليماني، وصدر عن دار الغرب الإسلامي ببيروت.
- كتاب (سراج المريدين).

## التربية : هدفها وضرورتها

يولد الطفل وهو مزودٌ بقدراتٍ فطرية على الرؤيا، والسمع، والتذوق، والشم، والتفكير، والتخيّل، والكلام، وغيرها، وما تلبث هذه القدرات أن تنمو مكوّنةً أدواتٍ مهمة، تتيح للطفل القدرة على العيش والارتباط بعلاقاتٍ مع وسطه وتحقيق نموه وتلبية حاجاته.

والطفل، فضلاً عن ذلك، يمتلك طاقاتٍ تؤهله للترقي، وتعدّه للإنتاج والعطاء، وتشكّل رأس مالٍ مهم، والاستغناء عنه، أو إساءة استعماله لا يحقق له الارتقاء الذاتي والتكيّف مع الذات والمجتمع مما هو مطلوبٌ للحياة الآمنة السعيدة[٧].

يرى ابن العربي أن الطفل ينشأ دون موروثاتٍ ثقافية، فالوالدان ونظام التعليم هما المسؤولان عما يُلقّنه الصبيّ، وعن المعارف التي يكتسبها. والصبيّ لا قدرة له على اختيار الوجهة التي يتجهها، والسبيل الذي يسلكه، «واعلم أن الصبيّ أمانةٌ عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرةٌ نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابلٌ لكلّ نقش، ومائلٌ لكل ما يُمال به إليه»[٨]. وهذا الكلام نجده في الإحياء الذي ألفه شيخه ومعلمه الغزالي[٩]. وقد كرّر هذا الرأي كثيرٌ من المربين الذين نظروا إلى الصبيّ كصفحةٍ بيضاء، يمكن أن نسطر عليها ما نشاء، أو كعجينة ليّنة نشكلها على النحو الذي نريد. إلاّ أن الغزالي لم يقف عند هذا الحدّ من القول، بل أضاف إليه أن النقش محدود التأثير، والتربية عاجزة عن تغيير الطبائع جملةً وتفصيلاً بطريقة كيميائية: فللطفل فطرته الخاصة وجبلته التي أنشأه الله عليها، لا يمكن إلغاؤها أو محوها، أو تحجيم دورها وأهميتها[١٠]. وهذا الكلام يصدر عن فهمٍ صحيح للحديث النبوي الشريف: (كلّ مولودٍ يولد على الفطرة) الحديث[١١].

هذه النظرة إلى الطفل دعت فقيهنا ابن العربي، كما دعت غيره من الفقهاء خاصة، إلى أنّ التعليم حقٌ من الحقوق الشرعية، التي يتعين على المجتمع الإسلامي ضمانه للصبيّ؛ لحمايته وتوفير شروط تكيّفه الاجتماعي السليم، وأسباب نجاته في الآخرة باعتقاد أهل الإيمان. وهذا الحق يقول عنه ابن العربي: هو في ذمة الأب، وإذا لم يوجد فالوصي، أو الحاضن، وإذا لم يوجد أحدٌ من هؤلاء، فهو من مسؤولية الإمام، «والذي يجب على الوالد في الصبيّ المسلم، كان أبًا أو وصيًّا أو حاضنًا أو الإمام، إذا عقل أن يلقنه الإيمان، ويعلمه الكتاب والحساب، ويحفظه أشعار العرب العاربة»[١٢].

فالعلم المتضمن تلقين الإيمان، وتعليم الكتاب والحساب، وتحفيظ الشعر، أحد أهم وسائل تجويد العنصر البشري، وترقية النفس الإنسانية، وتزويد الفرد بمعايير ثابتة للتمييز بين المصالح والمفاسد.

إن التعليم ينمّي القدرات العقلية للأفراد، ويساهم في تشكيل سماتهم الشخصية، ورسم معالمها. فهل التعليم في المغرب يؤدي إلى النتائج نفسها التي يؤدي إليها التعليم في المشرق؟

إن التعليم قد يكون فرصةً للارتياح، وينتج شخصيةً متفتحة على محيطها، متوافقة مع ذاتها، مجتهدة مبدعة. كما قد يكون - إذا تمّ في ظروفٍ وشروطٍ سيئة - سببًا لإثارة المخاوف والقلق والضجر، مما يعرقل النمو السليم لشخصية الطفل، ويشوّه تنشئته الاجتماعية، وينتج شخصية منطوية منسحقة متزمتة.

فالطرق التعليمية شكلٌ من أشكال تنظيم الحياة الاجتماعية والثقافية، يتفق مع الغاية التي تسعى إليها، ومع بنية ما تعلّم، ومع الفكرة التي تحملها عن سيكولوجية الطفل المتعلم(١٣). لهذا فالطرق التعليمية ترتبط بمشروعٍ ثقافيّ معيّن، يعكس نمطًا من التكوين، ويستهدف تشكيل نموذجٍ إنسانيّ معيّن. ونوع النموذج الإنساني المراد تكوينه معيار التفرقة بين الطرق التعليمية التقليدية والفعالة، وليس حجم المكتسبات والمعارف التي تيسرها الطريقتان المشرقية أو المغربية(١٤).

وطرق التعليم والدراسة بالمغرب لا تنمّي في المتعلم ملكة الاجتهاد، ولا القدرة على التفكير المستقل المبتكر، بل يقتصر همّ الشيوخ المعلمين على تزويد المتعلّم برصيدٍ من المعلومات والشواهد والنظائر والأمثلة، انطلاقًا من دراسة متونٍ ومدوناتٍ محددة. بخلاف طرق التعليم المشرقية التي تدرِّب المتعلم على البرهنة من خلال دراسة النصوص ومناقشتها. يقول ابن العربي متحدثًا عن قراءته المدونة إنه قرأها «بالطريقتين القيروانية في التنظير والتمثيل، والعراقية على ما تقدم في معرفة الدليل»(١٥).

إن أهمية الأنظمة التربوية التعليمية تقاس بمردودها، وبقيمة منتوجها. فكيف نظر ابن العربي إلى هذه الأنظمة انطلاقًا من هذا المقياس؟

## تردّي مردود التعليم

إن كان الحق في التعليم أمرًا متفقًا عليه في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، فإن نظام التعليم لم يكن واحدًا متفقًا عليه. لذلك يبدأ فحوى التربية المقارنة وأهميتها من البديهة التربوية المُسلَّمِ بها، التي مفادها أن أنظمة التعليم في العالم مختلفة متباينة فيما بين شرق العالم وغربه. وحتى داخل النظام التربوي الواحد، ففي المغربي مثلاً، نجد اختلافاتٍ جزئية بين المغرب والأندلس، وهذه الاختلافات ناشئة عن بعض الظروف المحلية الخاصة(١٦).

ودراسة التربية المقارنة تتم من خلال دراسة مظاهر التشابه والاختلاف وحصر أسبابها، وإبراز إيجابياتها وسلبياتها، سعيًا وراء الوصول إلى الحلول السليمة لبعض المشكلات التي تعترض سير العملية التعليمية، وتحول دون تحقيق أهدافها(١٧).

رأى ابن العربي أن أهم أرزاء الوضع الثقافي في المغرب ركوده وجموده مقابل حركة الوضع المشرقيّ ونمائه(١٨)، وقد ذكر في الحديث عن أسباب رحلته العلمية أنه كان يومًا يقرأ مع بعض المعلمين، فدخل إليهم أحد سماسرة الكتب وفي يديه رزمة كتبٍ من تأليف السمتاني شيخ الباجي، فسمع معلميه يقولون إن هذه الكتب عظيمة وفيها علومٌ جليلة، ولكن «فقهاء بلادنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون، وناهيك أمة يجلب إليها هذا القدر الطفيف فلا يكون منهم أحد يضاف إليه إلا بصفة العاجز الضعيف»(١٩). بينما يذكر في حديثه عن المشرق «دينٌ قائم، وأمنٌ متصل، وعلمٌ جمّ، وإقبالُ علمٍ، وعلماء رفعاء، بحورٌ زاخرة، وأنجمٌ زاهرة»(٢٠)، فالمشرق دار العلم، والمغرب دار التقليد والجمود.

وبعد مقارنة أنظمة التعليم بعضها ببعض، واكتشاف الاختلاف القائم بينها، وجّه ابن العربي انتقاداتٍ كثيرة لنظام التعليم في المغرب، معبرًا في الوقت نفسه عن إعجابه وإشادته بالعادات والتقاليد التعليمية المشرقية، التي لا عهد للمغاربة بها.

فقد عبّر كثيرًا عن شدة ميله إلى المشرق وشغفه وإعجابه به. وكان يرى أن رزية الانكماش والقصور التي مُنيَ بها الوضع العلمي في المغرب صعبة العلاج بعيدة الزوال؛ لأنها تعطيلٌ للأنظار، وطبع على المدارك، ولا سبيل إلى إصلاحها إلا من خلال إصلاح المناهج وتجديد بنائها.

والسؤال الذي طرحه ابن العربي، منذ شروعه

في تلقّي دروسه بالمشرق، هو هل التعليم في المشرق العربي أحسن من التعليم في المغرب؟

وللوصول إلى الإجابة عنه قام ابن العربي بدراسة قضايا جزئية، وتعرّض للمشكلات التعليمية بطريقة منفردة مستقلة، مستعينًا بوسائل مختلفة، منها استعراض التجارب التعليمية التي خبرها في حياته حينًا، ووقف عليها بدراسة حياة المواطنين المشارقة وصفاتهم الثقافية والاجتماعية حينًا آخر. فتنوعت مصادره، وتكوّنت لديه صورة حقيقية واضحة المعالم للنظامين التربويين السائدين في المشرق والمغرب، قلّما تكوّنت لدى غيره من العلماء.

ولا شكّ في أن أهمية النظام التربوي وفعاليته بمردوده وبقيمة منتوجه. المنتج الجيد للنظام التعليمي حسب رأي ابن العربي هو الإنسان العالم بالحدود الشرعية، المتمكن من اللغة العربية، الفصيح الكلام، العالم بالأحكام، ومثاله أئمة المشرق وفقهاؤه.

لهذا اطمأن ابن العربي إلى أن حياة العلوم الدينية بالمشرق هي الحياة المثلى، وأن حياة هذه العلوم في المغرب قد رانت عليها نزعة التقليد، والإحجام عن النظر، والقصور بالمعاني الشرعية السامية عن غاياتها ومقاصدها(٢١).

نقم ابن العربي على التقليد، واستهجن العكوف على الطرائق الملتزمة، وقال عن فقهاء المغرب وعلمائه: «صار التقليد ديدنهم، والاقتداء بغيتهم، واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل... ثم حدثت حوادث لم يلقوها في منصوصات المالكية، فنظروا فيها بغير علم، وجعل الخلف منهم يتبع في ذلك السلف، فيرجع القهقرى أبدًا إلى وراء، حتى يقع في أمه الهاوية. ولولا أن طائفة نفرت إلى ديار العلم، وجاءت بلبان منه، فرشت ماء العلم على هذه القلوب الميتة، لكان الدين قد ذهب»(٢٢).

يُرجع ابن العربي السبب في تخلف المغرب في العلوم إلى التعليم، ويعده عائقًا أمام تحقيق الأهداف: لعنايته بالحفظ وتحصيل الرواية. «وحدثت قاصمة أخرى في تعلّم العلم، فصار الصبي إذا عقل، سلكوا به أمثل طريقة لهم، فعلموه كتاب الله، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب، فإذا نهض فيه حفظوه الموطأ، فإذا لقنه نقلوه إلى المدونة»(٢٣).

فالخلل في المنهج التربوي هو سبب التخلف العلمي، وترتيب الدروس لا يراعي خصوصيات العلوم ومراتبها وغاياتها. فالبدء في المدرسة المغربية بحفظ القرآن، ثم دراسة الأدب واللغة، ثم تحفيظ الموطأ وقراءة المدونة، يراه ابن العربي خطأ، فهذا المنهاج، وإن كان يتضمن علومًا دينية وشرعية وأخرى لغوية وأدبية، لا يروق هذا العالم في ترتيبه.

## تعليم القرآن والدين

القرآن الكريم هو كلام الله عزّ وجلّ، قد اعتنى المسلمون بحفظه ودراسته وكتابته. فالغرض من التعليم، بإجماع المسلمين معرفة الدين الإسلامي ونشره، وهذا لا يتم إلا بمعرفة القرآن الكريم وقراءته وفهمه، فهو عماد الإسلام.

كما أن نظام التعليم في المغرب يبدأ مع المتعلم بحفظ القرآن. ويتذكر ابن العربي حفظه للقرآن في صباه، فيقول: «وكان من حسن قضاء الله أني كنت في عنفوان الشباب، وريّان الحداثة، وعند ريعان النشأة رتّب لي أبي، رحمه الله، معلمًا لكتاب الله حتى حذقت القرآن الكريم في العام التاسع»(٢٤). بعد حفظ القرآن وحذقه، يشرع الصبي في تعلّم العربية بحفظ المتون، ثم بعد ذلك الحديث والفقه فالحساب.

بينما في المشرق الإسلامي يبدؤون بتعليم الصبيّ العربية قراءةً وكتابة، وبعض المبادىء في الحساب، ثم ينتقل بعد ذلك إلى حفظ القرآن بعد حذقه، وله أن يستمر في طريق الدرس وتلقي العلم وتحصيله، أو التوجه إلى العمل الإنتاجي واحتراف مهنة يتفرغ لها، «وللقوم سيرةٌ بديعة، أن الصبيّ

الصغير منهم، إذا عقل، بعثوه إلى المكتب، وإذا عبر المكتب أخذه بتعلّم الخط والحساب والعربية، وإذا حذقه كله، أو حذق منه ما قدر له، خرج إلى المقرىء، فلقنه كتاب الله، حتى إذا حفظ القرآن، خرج إلى ما شاء الله من تعلّم العلم أو تركه، ومنهم، وهم الأكثر، من يؤخر حفظ القرآن ويتعلم الفقه والحديث – ما شاء الله – فربما كان إمامًا وهو لا يحفظه، ذلك لتعلموا أن المقصود حدوده لا حروفه»[٢٥].

هذا المنهاج الذي وجده ابن العربي في المشرق، ونال إعجابه، ورأى فيه من المحاسن التي يفتقدها المنهاج التعليمي المغربي، جعله ينتقد المدرسة المغربية بشدةٍ وعنف بقوله: «فيا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبيّ بكتاب الله في أول أمره، ويقرأ ما لا يفهم، وينصب في أمرٍ غير أهم»[٢٦].

إذ لا يصحّ في رأيه أن يسبق تعلمُ القرآن تعلمَ اللغة العربية، فاللغة العربية وسيلة لفهم القرآن واستيعابه. لهذا يجب أن يكون تعلمها سابقًا على تعلم القرآن الكريم.

إن ما وصفه ابن العربي بالسيرة البديعة في المشرق منهاجٌ تعليمي يُعنى بالعقل لا بالذاكرة، وطريقة تربوية تُعنى بدراسة الفقه وكتاب الله وفهمه، ومعرفة حدوده وأوامره ونواهيه، لا عناية لها بحفظ حروفه والوقوف عندها.

إن دراسة التربية المقارنة تعني دراسة العوامل التي تسبب التشابه والاختلاف، وتساعد على الوصول إلى الحلول السليمة لبعض المشكلات[٢٧].

## تعليم اللغة العربية

للمغاربة في تعلّم العربية عناية خاصة بحفظ قواعد اللغة أكثر من عنايتهم بامتلاك السليقة اللغوية، والتحكم في ناصية البلاغة والفصاحة، على الرغم من قدرتهم على التدليل على الماهية القاعدية للظاهرة اللغوية، «ومن عيوب هذه الطريقة أنه لا يحصل للمتعلم ملكة في اللسان العربي، ويكون حظه جمودًا في العبارات وقلة التصرف في الكلام»[٢٨].

إن الطفل لا بدّ من أن ينشأ على تعلم العربية ومقاطع الكلام العربي شعرًا ونثرًا، فلا ينبغي أن يبدأ بحفظ القرآن، فحفظ القرآن الكريم يجب أن يكون بعد تعلّم العربية بحفظ نصوص الشعر العربي، وبهذا يتأتى للصبي امتلاك السليقة اللغوية: لأن معرفة اللغة ضرورية لفهم القرآن ومعرفته.

فالصدر الأول من المسلمين كانوا عربًا ملمين بلغتهم ومدلولات ألفاظها، وبعد انتشار الإسلام واختلاط الألسن بالاحتكاك بغيرهم من الأقوام قلّت معرفة الناس بالعربية. ولما كان القرآن عربيّ اللغة، فإن درسه وفهمه ليس له من سبيلٍ آخر غير معرفة هذه اللغة ودراستها، «فيتعين علينا والحالة هذه أن نبدأ بعلم الألفاظ على وجه دلالتها على مدلولها، وأن نعلم مقاطع التعبير عنها، وهي الفصاحة التي تميّز بها لسان العرب، الذي ورد القرآن به، وهو الذي نحاول معرفته»[٢٩].

وهذه الدعوة كررها في كتبه الأخرى، كسراج المريدين، وقانون التأويل، ومراقي الزلف، والعواصم من القواصم.

## الإصلاح التربوي البديل

قارن ابن العربي بين أنظمة التعليم في المشرق والمغرب الإسلاميين، فتبين له اختلاف هذه الأنظمة، وأثر ذلك في مناهج العلوم، وطبيعة الحركة العلمية والثقافية. وغيرته على الدين الإسلامي والعلوم الإسلامية، وحرصه على ترشيد مسيرة الحركة العلمية، جعلته يقترح نظامًا تعليميًّا وسطًا، يجمع بين مزايا النظامين المشرقي والمغربي معًا، يقول ابن العربي: «والذي يجب على الوالد في الصبيّ المسلم إذا عقل أن يلقنه الإيمان ويعلمه الكتاب والحساب، ويحفظه أشعار العرب، ويعرفه العوامل في الإعراب وشيئًا من التصريف، ثم يحفظه، إذا اشتغل واشتد

في العشر الثاني، كتاب الله، وهو أمرٌ وسط بيننا وبين أهل المشرق، ثم يحفظه أصول سنن الرسول ﷺ، وهي نحو ألفي حديث في الأبواب، وهو عماد الدين. ويأخذ هو بعد ذلك نفسه بعلوم القرآن ومعنى كلماته. ولا يفرط في علم الفرائض، ولا يخلي نفسه من الأنساب، وشيئًا من الطب، ولا يفرد نفسه ببعض العلوم، فيكون إنسانًا في الذي يعلم، بهيمة فيما لا يعلم. وإذا أخذ نفسه بهذا القانون الذي رسمناه سيعتمد على ما هو أوكد، ويجعل الباقي تبعًا»[٣٠].

والمنهاج التعليمي الذي يدعو إليه ابن العربي يتضمن ما يلي:

- تلقين الإيمان.
- علم العربية والتمرّس بالأساليب والنصوص بما في ذلك الشعر؛ لاكتساب السليقة اللغوية.
- تعليم الحساب؛ لمعرفة قوانينه، فهو علمٌ عظيم.
- درس القرآن، فإنه يتيسر بهذه المقدمات.
- علوم الفقه وما يتعلق بها والحديث الشريف.

وقد شبه ابن العربي حفظ الصبي للقرآن، وهو لا يعقل منه حرفًا، كالعربيّ يحفظ التوراة بالعربية[٣١].

يقول ابن خلدون معلقًا على منهج ابن العربي: «ولقد ذهب ابن العربي إلى طريقة عربية في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدى، وقدّم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم؛ لأن الشعر ديوان العرب، ويدعو إلى تعليمه، وتقديم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة. ثم ينتقل منه إلى الحساب، فيتمرن فيه، حتى يرى القوانين. ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة. بعد القرآن يدرس ما شاء»[٣٢].

إن البديهة التي لم يلتفت إليها ابن العربي أن لكل نظامٍ تعليميّ جذوره الثقافية والاجتماعية الخاصة، وله تربته التي تناسبه والتي تختلف عن التربة الأخرى.

فالمغاربة سنيّون مالكيون محافظون متمسكون بتقاليدهم التربوية، وهذا القانون الذي رسمه ابن العربي لم يحظَ بالقبول لدى المغاربة: «لأن العوائد لا تساعد عليه وهو أملك بالأحوال»[٣٣]. فالعوائد في المغرب جرت على تقديم حفظ القرآن الكريم ودراسته في مراحل الدراسة الأولى، إيثارًا للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن[٣٤].

## الخاتمة

إن ابن العربي أغفل، عند مقارنته الأنظمة التعليمية، الالتفات إلى الظروف والعوامل التي أدت إلى نشوئها. فإحدى غايات التربية المقارنة، بعد معرفة أوجه التشابه والاختلاف بين الأنظمة التعليمية، تقصّي العوامل التي تكمن وراء الاختلاف والتشابه[٣٥].

والقانون الحسن الذي رسمه ابن العربي هو مذهب الأندلسيين في التعليم دون غيرهم[٣٦] واهتمامهم باللغة والشعر العربيين، وبذلهم الجهد في تعلمهما، يفسره رغبتهم الأكيدة في المحافظة على هويتهم اللغوية الثقافية في محيطٍ كثير الاتصال والاحتكاك بالثقافات واللغات اللاتينية، التي تهددهم بالغزو والذوبان وضياع الهوية الأصلية. وكان تعلمهم العربية والشعر مسايرًا لتعلم القرآن، الذي هو عماد الإسلام وأساس هويتهم الدينية.

إن النظام التعليمي يعكس آلام البلد وآماله، ويركز على النقاط المهمة التي تحتاج إليها الأمة، ويعكس أحيانًا ضعف الأمة واندحارها، أو قوتها ووحدتها. فسبر أغوار حياة المواطنين، وتفهّم أوضاعهم الاجتماعية والثقافية، وظروفهم السياسية والجغرافية، ضرورة من ضرورات المقارنة في التربية.

وعلى الرغم من الملاحظات التي أبديناها حول آراء ابن العربي، إلا أننا لا يمكننا أن نبخس هذا

العالم الفذّ المجتهد نظرته الواقعية المنصفة الإيجابية لنظم المشارقة وتقاليدهم وتجاربهم التربوية، وهذا يدل على بعد نظر هذا العالم وموضوعيته، وتفهمه لثقافة المشارقة ونظمهم.

والمتصفح لكتاباته يجد أدلة وشواهد تردّ قول القائلين بخلوّ تراثنا من أعمالٍ في التربية المقارنة[٣٧]. فآثار هذا الفقيه الرحالة ليست انطباعاتٍ محضة فرضت نفسها عليه عند زيارته للمشرق، وإنما قام بدراساتٍ مقارنة، وعرض حلولاً لمشكلاتٍ تعليمية متنوعة. ●

●●●

## الحواشي

١ – الكراسي الدينية في المغرب: ١٤٠.

٢ – أدب الرحلات: ٢١.

٣ – مع القاضي أبي بكر بن العربي: ٧٢.

٤ – التربية في الإسلام: ٦٩.

٥ – قانون التأويل: ٧٤.

٦ – مع القاضي أبي بكر بن العربي: ١٦٩.

٧ – مظاهر ضعف الطلاب في اللغة العربية: ٥٠.

٨ – مع القاضي أبي بكر بن العربي: ١٦١.

٩ – إحياء علوم الدين: ٧٢/٣.

١٠ – إحياء علوم الدين: ٦١/٣.

١١ – صحيح أورده البخاري في كتاب الجنائز، ومسلم في كتاب القدر، والترمذي، والنسائي، وأبو داود، وأحمد، ومالك في موطئه.

١٢ – مع القاضي أبي بكر بن العربي: ١٥٨.

١٣ – أما آن لتربيتنا أن تتغير: ٧٤.

١٤ – المرجع نفسه: ٧٤.

١٥ – قانون التأويل: ٩٧.

١٦ – التربية المقارنة، مجلة الجامعة المستنصرية. عدد٣، ٣(١٩٧٢): ٢٤٣.

١٧ – التربية المقارنة: ١٠٨.

١٨ – ابن العربي في العواصم من القواصم: ٧٢.

١٩ – قانون التأويل: ٧٧.

٢٠ – قانون التأويل: ٧٧.

٢١ – ابن العربي في العواصم من القواصم: ٧٣.

٢٢ – المرجع السابق نفسه: ٧٣.

٢٣ – مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور: ١٣٦/١.

٢٤ – قانون التأويل: ٦٩.

٢٥ – مع القاضي أبي بكر بن العربي: ١٦١.

٢٦ – قانون التأويل: ٣٤٧.

٢٧ – التربية المقارنة: ١٠٨.

٢٨ – مقدمة تاريخ ابن خلدون: ٧٤٢.

٢٩ – قانون التأويل: ٣٤٦.

٣٠ – مع القاضي أبي بكر بن العربي: ١٨١.

٣١ – قانون التأويل: ٣٤٦.

٣٢ – مقدمة تاريخ ابن خلدون: ٧٤٢.

٣٣ – المرجع السابق نفسه: ٧٤٢.

٣٤ – المرجع السابق نفسه: ٧٤٢.

٣٥ – التربية المقارنة: ٢٤٥.

٣٦ – في الأدب الأندلسي: ٦٦.

٣٧ – التربية المقارنة: ١٠٩.